تأويل هيغل لمعاني بعض أركان الإسلام

كتب هيغل في الجزء الرابع من فلسفة التاريخ الجزء الخاص بالعالم الجرماني فصلًا طويلًا نسبيًّا خصصه لما يسميه بثورة الشرق مقارنة مع الإصلاح الذي يعتبره ثورة الغرب، فحدد منزلة الإسلام في التاريخ الكوني وطبيعة الدور الذي أداه حسب المنطق الذي يفسر به هيغل تاريخ البشرية الروحي والخلقي. وفي أثناء ذلك وردت إشارة خاطفة حاول فيها تعريف معنى بعض الأركان الإسلامية رابطًا إياها بخاصية التجريد التي ينسبها إلى الإسلام والمسلمين.

فقد قال في الجزء الرابع من محاضراته في فلسفة التاريخ: «**إن خاصية المحمدية (= الإسلام) هي تضمنها بأن الوجود الفعلي ليس فيه ما يمكن أن يكون ثابتًا. فكل شيء يعتبره الإسلام فاعلًا ونشطًا ومنتشرًا في العالم على امتداده اللامتناهي، بحيث إن العروة الوحيدة الباقية هي عبادة الواحد التي ينبغي أن تمسك به. والتجريد يسود على فكر المحمديين ومن ثم فلا هدف لهم إلّا تقديس الواحد المجرد وتسويده. لذلك فهم قد نزعوا إلى نوع من الحماس عظيم. وليس للإنسان عندهم من قيمة إلّا من حيث هو مؤمن. وتعظيم الواحد المجرد**

والإيمان به والصوم والتخلي عن الإحساس البدني بالوجود الخاص والجزئي والصدقة، وكل هذه الواجبات الدينية إنما معناها التخلي عن التملك الشخصي. وتلك هي واجبات المسلم الدينية البسيطة. أما إجلال المطلق فأسمى صورة عندهم هي الموت من أجل العقيدة. فالشهيد الذي يسقط في ساحة القتال يكون واثقًا من الجنة» (هيغل، دروس في فلسفة تاريخ العالم الجزء الرابع: العالم الجرماني الفصل الثاني منه بعنوان المحمدية. (Hegel, *Vorlesungen ueber die Philosophie der Weltgeschichte* Bd. IV, *Die Germanische Welt*, Herausg von. Georg Lasson, Verlag von F. Meiner Leipzig 1920)

والسؤال هو، هل فهم هيغل طبيعة الفروض الدينية الإسلامية إذا اعتمدنا على فهمه للصوم والصدقة عامة والزكاة خاصة، أم أن محاولة قراءة واجبات المسلم في ضوء نظريته التي تعتبر الإسلام الرديف السالب لدور المسيحية الجرمانية هو الذي حال دونه والقراءة الصحيحة لمعاني الفروض الدينية في الإسلام؟

فهل الصيام من جنس سلوك الرهبان الغذائي هدفه التخلص من الشعور بالوجود الذاتي الخاص والجزئي كما يتصور هيغل؟

وهل الزكاة والصدقة وظيفتهما التخلص من التملك الشخصي كما يزعم هيغل؟

أليست هذه قراءة مسيحية لعلاقة المسلم بالقيم الدنيوية ودلالتها الروحية قراءة أسقطها هيغل ليفهم الإسلام من منظور كان الإسلام ثورة عليه وتلك هي منزلته في التاريخ الروحي للإنسانية

منزلته التي جعلته يعتبر نفسه الدين الخاتم لكونه الدين الفاتح الذي حرَّفته التجارب الدينية التي من بينها ما ينطلق منه هيغل؟

من المعلوم أن الفروض الدينية هي الأداة المفضلة للتربية الروحية والخلقية في كل دين. ويتجلى ذلك بصورة صريحة في الإسلام الذي حدد نبيه الأكرم مهمته الجوهرية بكونها تتميم مكارم الأخلاق. لذلك فإن نقد الفهم الهيغلي واجب ليس من منطلق الموقف الدفاعي عن الذات، بل لكون ذلك من شروط فهم تحرير الإنسانية من التحريفات التي جعلت الدين يتحدد بالقطع مع التاريخ من حيث بعداه، كما أدرك طبيعتهما ابن خلدون:

بعد التساكن من أجل التآنس أو سد الحاجات المادية ومن ثم استعمار الإنسان في الأرض وتحقيق شروط الكرامة البشرية شروطها المادية.

بعد التساكن من أجل التآنس أو سد الحاجات الروحية ومن ثم تحقيق شروط السعادة والمتعة الدنيوية التي لا تتنافى مع النعيم الأخروي.

ومن المعلوم كذلك أن القراءات الاستشراقية استندت إلى هذه القراءة الهيغلية في فهم الإسلام معتبرة إياه دينًا مجردًا ينسب إليه سلب كل متعين ليتهم بتأسيس نزعة تهديمية للحضارة، بل وبالإرهاب غافلين عن هذين البعدين الناتجين من ثورتين روحيتين، لعل أكبر رموزهما هما تحرير المتعة الجنسية من الوظيفة التناسلية، وتخليص الإنسان من المقابلة بين الدنيوي والأخروي لكون الثاني ليس هو إلّا ما يضفي المعنى عن الأول، وليس البديل منه. وواضح أن هذا التصور العجيب الذي بنى عليه

هيغل فلسفته الدينية التي ألغت دور الإسلام في التاريخ الروحي للبشرية بين التناقض مع أهم مقومات الدين الإسلامي: **أعني عدم الحط من شأن القيم الدنيوية، بل ربطها بدلالاتها الروحية لئلا تتحول إلى عبادة الدنيا والهوى.**

وقبل أن نحلل معاني الفروض الخمسة، فلنستخرج نسقها بحسب دلالة دورها في هذه الوظيفة الدينية الجوهرية التي تؤديها في حياة المؤمنين. فللفروض بداية (= **الشهادة**) وغاية (= **الحج**) ومركز (= **الصلاة**). ويصل البداية بالمركز حلقة وسطى تعد النفس إلى العبادة الخالصة بتحريرها من عبادة الدنيا بالسلطان على حاجات البدن (= **الصوم**). كما يصل المركز بالغاية حلقة وسطى ثانية تعود النفس على التحرر من عبادة الدنيا بالسلطان على إغراءات المال (= **الزكاة**). فيكون مجموع الفروض خمسة، وتكون عدتها ضرورية، وليس تحكمًا شعائريًا أو تسلطًا كنسيًا.

فالبداية هي من دون شك **الشهادة** لكونها شرط الدخول إلى الملة والانتساب إلى الأمة. وهي ذات مستويين:

الأول: هو شهادة أن لا إله إلّا الله التي تؤكد بشكل النفي والاستثناء للحصر وجهَي التوحيد، أعني سلب الشرك وإثبات الوحدانية. وبين أن الشهادة الأولى تتكون من بعدين: البعد السلبي الذي ينفي التعدد الإلهي لتثبت ببعدها الإيجابي الوحدة الحصرية في الإلهية.

والثاني: هو شهادة أن محمدًا رسول الله. ولها بعدان كذلك، رغم كون أحدهما ضمنيًّا. ففي إثباتها النبوة للنبي محمد ﷺ بالعلمية الدالة على العين نفي لقصر النبوة على بني

إسرائيل، ومن ثم إثباتها بصورة كلية لكل البشر. وقياسًا على الشهادة الأولى تتألف الشهادة الثانية من بعدين، أحدهما صريح والثاني ضمني يحدده تحرير البشر من نظرية الشعب المختار الذي ينحصر فيه الاتصال بالمطلق: وإذًا فالبعد الصريح يثبت رسولية محمد التي تتضمن شمول الرسولية للبشر جميعًا خاصة والقرآن صريح في أن لكل أمة رسولًا بلسانها.

إن غاية الفروض الإسلامية هي من دون شك **الحج إلى بيت الله الحرام**، لكونه في الحقيقة التكرار القصدي ذا الدلالة الوجودية على تجديد العهد بالإسلام في موطن تجربته الأولى. وهذه التجربة الأولى تتضمن معنى الإسلام الحقيقي، إذ إن الحج دال على تغيير الإنسان وجهته الوجودية الحقيقية بقرار يثبت أنه قد شرع في تقديم الدلالة الباقية للحياة الدنيوية على دلالتها الفانية مدركًا بذلك معين المعاني التي تجعل الدنيا مطية وتجعل امتطاءها عين الاجتهاد من حيث هو تواصٍ بالحق، أعني طلبًا للحقيقة والجهاد من حيث هو تواصٍ بالصبر، أي سعيًا لتحقيق القيم في التاريخ الفعلي، لئلا يبقى الدين مجرد أحلام خرافية: وذلك هو المعنى الحقيقي للعلمانية بمعنى جعل القيم عين سياسة العالم، وليست مجرد أحلام في الأديرة، وهو معنى اعتبار جل الرهبان من الفاسقين: **وهذا المعنى العميق هو جعل تجربة الصدر مركز الوجود الإنساني ومنبع كل تزود بالدلالات العميقة للدين الإسلامي في ظرفها المكاني الذي يستتبع الظرف الزماني لكل ما حدث في أركان البيت الحرام والمدينة المنورة من أحداث جليلة هي منعرجات التحقيق التاريخي لمقومات الرسالة الإسلامية.**

ويتوسط بين البداية والغاية **الصلاة** التي تمثل القلب من منظومة الفروض الخمسة. لذلك اعتبرها الرسول الكريم قرة العين. ويربط بين الشهادة والصلاة وصلًا بين البداية والقلب **الصوم** الذي يطهر النفس من سلطان الحاجات الجسدية، فيفيد سلطان المرء على بدنه. كما يربط بين الحج والصلاة وصلًا بين القلب والغاية **الزكاة** التي تطهر المال، فتثبت سلطان الإنسان على أهم أدوات سلطان الدنيا عليه.

فكل من كان ذا سلطان على الحاجات البدنية (**الصوم**)، وعلى الإغراءات المالية (**الزكاة**)، كان حرًّا بحق، وأمكن له أن يتوجه إلى الله جل وعلا توجهًا صادقًا يتحقق تمام التحقق في فعل **الحج** الذي لا يتعلق شرط الاستطاعة فيه بالبدن والمال منفصلين عن دلالة العزم الذي لا يتحدد إلّا بهذين السلطانين: **فقد يتعلل من لم تخلص نيته لهذه الوجهة الروحية بكل العلل لكي يجعل الاستطاعة شبه مستحيلة، ما يعني أن الاستطاعة إضافية إلى السلطانين على البدن والمال أكثر مما هي إضافية إلى البدن والمال.**

وكون الحج غاية الفروض الدينية في الإسلام ليس القصد به أنه نهايتها، إذ هي من حيث المنزلة الروحية لا تتفاضل، وكلها بداية وغاية في الوجدان الإنساني المؤمن، بل إن الحج، بعد حصوله صادقًا ولذاته، وبفضل ما يوفره من عيش تجربة الإسلام الأولى ـ الحية دائمًا ـ من جديد، يصبح رصيده الروحي ملازمًا لكل قيام بالفروض فيجعلها هي بدورها تجربة حية لكأن الإنسان يقوم بها، وهو مأموم بالرسول الكريم نفسه، ومحوطًا بصحابته الذين وطدوا أركان الإسلام باجتهادهم وجهادهم.

لذلك فإنه يمكن القول إن الحج في نسبته إلى الفروض الأخرى من حيث هي البعد الروحي من الحياة مثل زمزم للقيام مصدرًا للحياة في بعدها المادي:

فهو مورد التجربة الحية الدائم الذي بمجرد أن يحصل يجعل كل الفروض حال القيام بها تجربة حية فيرفعها إلى منزلة تتجاوز مجرد ممارسة طقسية قد تفقدها العادة جذوتها الحية.

وقد ظن هيغل الصوم دالًّا على رفض الوجود الذاتي الشخصي قياسًا له على الصوم الرهباني والصوفي. كما تصور الزكاة والصدقة تحررًا من الملكية. وطبعًا فهو لم يذهب إلى الغاية في تحديد معاني الفروض الخمسة لكونه جمعها كلها تحت هذين العنوانين ليردها إلى ما يسميه برفض الإسلام للتعين والتحدد. إنه يعتبر الإسلام غارقًا في المجرد وقائلًا بالسيلان الأبدي: **تصور نفيه لإطلاق العيني الذي تمثله عبادة الدنيا نفيًا مطلقًا للعيني الذي تمثله الرهبانية الهندوسية.**

لكن ما يكذِّب فكرته عن الزكاة التي تثبت عكس ما فهم هو أنها تشترط الملكية والنصاب، مما يعني أنها ليست دالة على رفض المال بذاته، بل على رفض سلطانه على الإنسان: **ففي حالة كون المال ذا سلطان على الإنسان يصبح أداة استعباد، وفي حالة سلطان الإنسان عليه يصبح أداة تحرير، ومن ثم أداة تعاون بين البشر.** وشتان بين الأمرين، فضلًا عن كون المأثور في فكر المسلمين أن الفقر كاد أن يكون كفرًا لكونه يمكن أن يصبح سببًا في عدم قيام المسلم بفرضين من فروضه أعني الزكاة والحج.

كما أن الصوم في الإسلام ليس صومًا بالمعنى الصوفي والرهباني للكلمة لكون الإسلام ينفي الترهب ويدعو إلى القوة، ويرفض الضعف، فضلًا عن كون الضعف البدني يمكن أن يحول دون المسلم وفرضين آخرين من فروضه أعني الصوم والصلاة اللذين قد يلغي المرض القدرة على أدائهما في أفضل صورهما. ثم إن شهر الصيام بعكس ما يذهب إليه الكثير من الفقهاء والدعاة والوعاظ، الذين يرون رأي هيغل أو يكادون، هدفه الحقيقي هو جعل مباهج الحياة تتحرر من تحولها إلى عادة في الأيام الأخرى، لئلا تفقد من ثم جدوتها.

إن شهر رمضان يحول الحياة ومباهجها إلى احتفال مشروع بها ويضفي عليها من الجذوة والمعنى ما يجعلها في الوقت نفسه إحياء لشروط القيام العضوي والروحي فضلًا عن جمع الناس حول المائدة المزدانة والسمر الحي بمباهج الحياة التي لا يعارضها الإسلام، بل هو يعتبرها شرط الاستخلاف في الدنيا: فاستعمار الإنسان في الدنيا شرط في الاستخلاف عليها.